

الأقليات اليهودية وظهور الرأسمالية في العالم

د. عبد الوهاب المسيري

لم يكن لليهود أوروبا وجود متجذر في المجتمعات التي عاشوا فيها ، بل كان وجوداً عائماً ، يعيش على الاختلافات بينها . وعندما تحولت المجتمعات الأوروبية إلى المرحلة الرأسمالية كان للمال اليهودي دور خاص يلقي عليه الكاتب بعضاً من الضوء .

يمكن القول بشكل عام أن يهود العالم العربي والإسلامي لم يلعبوا دوراً اقتصادياً متميزاً ، ولم يضطلعوا بوظائف اقتصادية خاصة مقصورة عليهم دون بقية أعضاء المجتمع ، ولذا فإنهم لم يلعبوا دوراً خاصاً أو متميزاً في نشأة الرأسمالية أو في المشروعات الرأسمالية الحرة في العالم العربي الإسلامي ، خاصة أن البلاد العربية والإسلامية التي أسست نظاماً اقتصادياً يتبع نموذج الإقتصاد الحر (مثل تركيا ودول الخليج ولبنان) لم يكن فيها أقليات يهودية كبيرة ، وحتى حين وجدت ، كما هو الحال في المغرب ، فهي لم تسهم بشكل خاص في تاريخ المغرب الاقتصادي . هذا التعميم لاينفي بطبيعة الحال وجود أي شكل من أشكال التميز بين الأقلية اليهودية والأغلبية ، فهذا ضد طبيعة الأشياء .

سومبارت وفيبير

لكن الوضع في العالم الغربي يختلف بشكل جوهري . ويرى العالم الألماني فرنر سومبارت (١٨٦٣ - ١٩٤١) أن ثمة علاقة قوية بين أعضاء الطوائف اليهودية في الغرب (خاصة يهود المارانو) ، وظهور الرأسمالية وتطورها . ويقدم سومبارت اطروحته في مقابل أطروحة ماكس فيبير .

فقد وصف فيبير اليهودية القديمة بأنها كانت ديانة فريدة في العالم القديم لعقلانياتها وعدم تأكيدها لأهمية السحر أو الأسطورة ولتوجهها الدنيوي (في مقابل الديانات الشرقية الأخرى) . ويتأكد تحكم الإنسان في مصيره وبيئته . وكل الصفات الأنفة تبين أن اليهود قد ظهرت بينهم روح الإنجاز . ويرى فيبير أن ثمة علاقة واضحة بين روح الإنجاز وإحساس الإنسان بالتحكم في مصيره وبيئته من جهة وتوجهه نحو المستقبل من جهة أخرى وهي أحد العناصر الأساسية التي تؤدي إلى التراكم وظهور الرأسمالية ، ومع هذا لم يجد فيبير سوى علاقة واهية غير مباشرة بين الأخلاق اليهودية وروح الرأسمالية (ثم كتب دراسته الشهيرة عن علاقة الأخلاق البروتستانتية بروح الرأسمالية التي طرح فيها تصوره للعلاقة الوثيقة بينهما) .

يرى سومبارت ، على عكس فيبر ، أن الأخلاق اليهودية أكثر علاقة بالرأسمالية من البروتستانتية ، فاليهودية لاتحرم التجارة وإنما قامت بتنظيمها ، بل وتشجيعها وقد أبدت اهتماماً خاصاً بالأعمال المالية من أجل تحقيق الربح . ولا يوجد في اليهودية أخلاقيات أخروية أو غير دنيوية ، ولا تشجع على الزهد (ويمكن ان أضيف أن عدم استقرار فكرة البعث في اليهودية والفكر الأخروي بشكل عام قد شجع الاتجاهات الدنيوية) وتشجع اليهودية الاعتدال والتحكم في الذات ، والتعبير عن العواطف والدوافع من خلال قنوات معترف بها دينياً ، مما كان يعني في واقع الأمر تحويل طاقات حيوية هائلة للنشاطات الاقتصادية (ما هو في الواقع تحقيق الربح ؟ ليس الترشيح الاقتصادي سوى تطبيق تلك القواعد التي صاغت الديانة اليهودية من خلالها حياة اليهود على النشاطات الاقتصادية ، كما قال سومبارت) . ويمكن أن نضيف أن اليهودية قد حرّمت الإقراض بالربا بين اليهود ولكنها أحلته بين اليهودي وغير اليهودي مما فتح الباب على مصراعيه لليهود للإشتغال بالأعمال المالية . وبتراكم رأس المال (وقد رأى سومبارت هذه الأخلاق على أنها ذات " روح سامية " في مقابل الروح الآرية ، ولذا استفاد النازيون من كتاباته) .

وأطروحة سومبارت متطرفة بسبب عموميتها ، فهو يحاول أن يفسر تجربة الأقليات اليهودية الاقتصادية في الغرب استناداً للنسق الديني . وهو نسق يحتوي كل العناصر التي أشار إليها ، ولكنه يحتوي أيضاً على عكسها . فاليهودية ، خاصة في كتب الأنبياء تحتوي على أخلاقيات إشتراكية متطرفة – إن صح التعبير – كما أن مفهوم اليوبيل الخاص بتوزيع كل الأراضي كل خمسين عاماً يمنع أي تراكم للثروة إن طبق . وتعطي اليهودية الحاخامية مرتبة دنيا للتجارة ، فالشخصية الأساسية في الجيتو لم يكن التاجر وإنما كان العالم التلمودي الذي يدرس التوراة . ولو كان النسق الفكري الديني هو الذي يفسر الدور الاقتصادي لكان دور يهود الاقطار العربية يشبه دور يهود وسط أوروبا في القرن التاسع عشر . ولكن الأمر عكس ذلك تماماً . ولكن مع هذا ثمة عنصراً من الصحة في أطروحة سومبارت . فالنسق الديني اليهودي (في صياغته الأولى ثم في صياغته التلمودية) يخلق ترابطاً اختيارياً بين اليهودية والرأسمالية لا يمكن إنكاره ، وهو ترابط يخلق تربة خصبة يمكن للرأسمالية كأخلاق وكنسق أن تنمو فيها . ولكن لعل العنصر الحاسم في تحديد العلاقة بين أعضاء الطوائف في أوروبا وظهور الرأسمالية هو علاقتهم بالمجتمع الغربي ودورهم فيه . وأهم سمات هذه العلاقة هي أن موقع اليهودي ظل خارج علاقات المجتمع الاقطاعي الاقتصادية والدينية والاخلاقية ، فكان شخصاً غريباً بمعنى الكلمة فقد كان يهودياً في مجتمع مسيحي ، وعضواً في طبقة وسيطة لا تنتمي لا للمستغلين ولا للمستغلين .

وقد اضطلع أعضاء الطوائف حتى بداية عصر الثورة التجارية ، بدور تجاري هام رغم هامشيته فكانوا يقومون بنقل الفائض الزراعي والسلع الترفيية ، ويؤدون وظائف مالية وتجارية مختلفة في غاية الحيوية للمجتمع الاقطاعي ومع هذا فهي لاتقع في صميم العلاقات الانتاجية لهذا المجتمع ، ولم يكن بوسع بقية أعضاء المجتمع القيام بها . وقد كان يتم " التسامح " تجاه اليهود طالما أن المجتمع كان في حاجة لهم ، ولكنهم لم يعطوا حقوقاً قانونية محددة مثل حقوق وواجبات أهل الذمة في الاسلام . وكانت تصدر موثيق خاصة تؤمن حقوقهم وتحدد واجباتهم ومقدار الضرائب المفروضة عليهم واماكن إقامتهم .

وكانت هذه الموثيق تلغي في أي وقت تنتفي فيه الحاجة لليهود أو لدورهم الاقتصادي ، فكان بالتالي يتم طردهم . وكان يشار لليهود على انهم " أقنان بلاط " أي انهم كانوا خاضعين للملك أو الامبراطور مباشرة بل ويعدون ملكية خاصة له يدينون له وحده بالولاء الأمر الذي حقق لهم قسطاً كبيراً من حرية الحركة ، ولكن زاد من عزلتهم عن بقية قطاعات المجتمع .

الحركي والثابت

وقد نتج عن ذلك أن وجود اليهود في الحضارة الغربية كان يتسم بعدم التجذر أو الانتماء الكامل لأي تشكيل ثقافي أو طبقي محدد فتحولوا إلى عنصر بشري دينامي يحتفظ برأسماله على هيئة نقود سائلة يمكن نقلها بسهولة من مكان لآخر . وقد دعم من هذا الاتجاه أنه كان لا يسمح لليهود في معظم الأحوال بشراء العقارات الثابتة .

إن اليهود لغربتهم وعدم تجذرهم وبسبب الطبيعة السائلة لثروتهم تحولوا إلى عنصر بشري متحرك موضوعي ومجرد ، موضوعي لأنه ينظر له دائماً من الخارج ، ومجرد لأنه لا يوجد داخل سياق محدد ، واصبح أعضاء الطائفة يجسدون ضرباً من الاقتصاد الحركي المجرد داخل الاقتصاد الزراعي الثابت الطبيعي ، وقد وصل هذا التجريد إلى قمته في التنظيم الكامل لعلاقة اليهود بالمجتمع ، وفي إحلال العلاقات القانونية التعاقدية محل العلاقات التقليدية الشخصية المبنية على كلمة الشرف والثقة التي كانت سائدة في المجتمع الاقطاعي . فكانت الموثيق التي تمنح لليهود تحاول أن تتظم كل جوانب العلاقات الممكنة بين المجتمع المسيحي واعضاء الطائفة ، وهي علاقة كان الهدف منها ، بالنسبة للطرفين ، الربح الاقتصادي المحصن . وفكرة القانون اللاشخصي وتموضع العلاقات البشرية (علاقات إنسانية بين أشياء وعلاقات إنتاج بين بشر) هو الجوهر النفعي للاقتصاد والمجتمع الرأسماليين .

لكن هذا ، أي عدم انتماء اليهود وتموضعهم وتجريدهم ، إلى جانب وجود التبادل الاختياري بين اليهودية والرأسمالية تحول أعضاء الطائفة إلى الخميرة التي ساعدت على نشوء

الرأسمالية ، دون ان يكونوا بالضرورة السبب الوحيد أو حتى الأساسي في العملية التاريخية المركبة التي ادت إلى ظهور الرأسمالية .

ويظهر دور أعضاء الأقليات اليهودية كخميرة للنظام الرأسمالي في الغرب في كثير من النشاطات التي لعبوها وفي إبداعاتهم ، فهم كانوا من أوائل من طوروا فكرة الأسهم والسندات التي تحقق تراكماً رأسمالياً يمكن توجيهه لأي مجال استثماري قد يظهر ؛ أي أنهم أسرعوا بعملية تجريد النقود بفضلها عن الأفراد وعن الرغبات البشرية والعواطف والأخلاق ، وزادوا من كفاءتها كرأسمال ، وجعلوا مقياس الكفاءة الذي يطبق عليها هو معدل الربحية وحسب .

واليهودي الذي تم استبعاده من النظام الإقطاعي كان يقع خارج نطاق قيم المجتمع الدينية والأخلاقية ، كما أن قيمه التجارية الموضوعية المجردة كانت مختلفة عن القيم المسيحية التي كانت تنظر بعين الشك للنشاط التجاري ككل وللربا على وجه الخصوص ، وتهدف إلى أن تجعل من السوق مكاناً يلتزم بالحد الأدنى من الأخلاق ، وبأفكار مثل فكرة الثمن العادل والجر الكافي ، وضرورة إتاحة الفرصة لكل التجار لتحقيق ربح معقول مع وضع حد أقصى للأرباح ، وقد ادت هذه الأخلاقيات (المختلفة من منظور رأسمالي دنيوي) التي تخط بين الاقتصاد والأخلاق إلى الحد من دينامية التجارة . أما العنصر اليهودي فلم يكن يدين بالولاء لمثل هذه الأخلاقيات ولذا لعب دوراً أساسياً في تحطيمها وفي تقويض دعائم هذا الضرب من الاقتصاد المحافظ الذي تتداخل فيه العناصر الاقتصادية بالعناصر الأخلاقية والدينية . فأسهم أعضاء الطائفة في عملية العلمنة والترشيد ، أي فصل العنصر الاقتصادي عن العناصر الأخرى ، بحيث ظهر اقتصاد تجاري مبني على التنافس ، وعلى محاولة تعظيم الربح ويطرح فكرة إشباع حاجات المستهلك والاستيلاء على نقوده كمثل أعلى .

كما كان أعضاء الطائفة - بسبب عدم انتمائهم - من أكثر العناصر حركية والتزاماً بقوانين السوق الاقتصادية كقيمة مطلقة . فنجد أنهم حاولوا دائماً أن يوسعوا من نطاق السوق ومن انتشاره (وهي العملية التي انتهت إلى تحويل المجتمع بأسره إلى النمط الرأسمالي والتي أطلق عليها ماركس عملية " تهويد المجتمع ") فكانوا دائماً يبحثون عن أسواق جديدة وعن زبائن جدد وعن سلع جديدة ، كما أنهم كانوا على استعداد لأن ينتجوا سلعاً أقل جودة وأقل تكلفة عما كان ينتجه الحرفي أو التاجر في العصر الوسيط الذي كان يعتز بحرفته وتجارته ، وتعود على إنتاج سلعة بعينها يرقى بها إلى مستوى معين من الجودة ، لا يمكنه أن يتنازل عنه أو يتهاون فيه ، فحرفته كانت جزءاً من ميراثه الشخصي .

بشر عابرون للقارات

ولعل من العناصر الأساسية التي جعلت من اليهود خميرة للنظام الرأسمالي أنهم كانوا عنصراً بشرياً " عابراً للقارات " إن صح التعبير ، فكان يهود بولنده على علاقات تجارية ومالية وثيقة مع يهود ألمانيا ، ومع يهود الشرق ، وهكذا . وقد أسهم هذا في تسهيل عملية التجارة الدولية وتوسيع نطاق السوق . كما أنه سهل عملية جمع المعلومات التجارية ، مما جعلهم قادرين على المنافسة .

وقد لعب يهود شرق أوروبا (بولنده) دوراً خاصاً . فالباعة اليهود وكذا اليهود الذين كانوا يقومون باعمال الفنادق الصغيرة وتقطير الكحول وتربية الماشية في المناطق الريفية وجمع الضرائب (الأردن) لحساب كبار الملاك ساعدوا على إدخال عناصر التبادل واقتصاد المال . وكان نشاط صغار التجار اليهود في المناطق الريفية يشجع انتاج فائض زراعي لزيادة استهلاك البضائع غير الزراعية ، كما كان يسهم في إبعاد جزء من قوة العمل الزراعي عن الأراضي ، وتوجيهها إلى صناعة الأكواخ المنزلية وخدمات النقل ، وهذا النشاط هو الذي ساعد على خلق قوة عمل غير زراعي في المناطق الريفية تعتمد على الأجور أكثر من اعتمادها على العائد من الأرض .

وبظهور النظرية الماركنتيلية زاد الدور الذي يلعبه اليهود داخل النظام الرأسمالي . فهذه النظرية تجعل من " مصلحة الدولة " المبدأ المقبول لدى الجميع بحيث يتم الحكم على الإنسان لا حسب انتمائه الديني وإنما بمدى نفعه للدولة . وقد ظهرت في هذه الفترة فكرة مدى نفع اليهود وفتح المجال أمامهم للاسهام في جميع النشاطات الاقتصادية . وابتداء من منتصف القرن السابع عشر استعان الملوك والأمراء في وسط أوروبا - في ألمانيا وغيرها من الدول - باليهود في كثير من النشاطات الاقتصادية مثل التجارة الدولية ، وتمويل الجيوش وعقد القروض والصفقات .

لكل ما تقدم نجد أن تاريخ الطوائف اليهودية في الغرب مرتبط بتاريخ الرأسمالية في كثير من الوجوه . ومن الملاحظ أن كثيراً من الدول التي كانت لها مشاريع تجارية او استعمارية كانت ترى أن العنصر اليهودي عنصر أساسي في هذه العملية ، ويمكن الاستفادة من خبراته ورأسماله ، ويمكن توظيفه في أماكن نائية وجديدة ، فهو عنصر مجرد دينامي . وقد تم توطين اليهود في بولنده في القرن الرابع عشر (مع التجار الألمان) لتشجيع الاقتصاد التجاري ، ثم تم توطينهم في أوكرانيا بعد ضمها إلى بولنده لنفس السبب . كما تم توطين اليهود في كثير من المستعمرات الاستيطانية والمراكز التجارية التابعة لانجلترا وهولنده في العالم الجديد .

وقد رحب كرومويل بتوطين اليهود في انجلترا حتى ينعشوا الاقتصاد الانكليزي وحتى يكونوا جواسيس له يأتون له بالمعلومات التجارية . وسمحت فرنسا ليهود المارانو المطرودين من

أسبانيا بالاستيطان في بعض المراكز التجارية الهامة فيها مثل بايون وبوردو . وقد كان توطين اليهود يأخذ عادة النمط التالي : يبدأ توطين اليهود السفارديين بما لهم من خبرات تجارية مالية ورؤوس أموال واتصالات دولية في الدول الغربية والدولة العثمانية ، ثم يتبعهم في معظم الأحوال جماعات من اليهود الاشكناز الذين بدأوا في الهجرة بعد ثورة شميلنكي .

هذه هي البانوراما العامة للدور الذي لعبه اليهود في تكوين الرأسمالية والاقتصاد التجاري ، ويمكننا الآن ان نترك المرحلة التكوينية لنرى أثر ظهور الرأسمالية على اعضاء الطوائف اليهودية ومقدار إسهامهم في الاقتصاد الرأسمالي ذاته .. وسنلاحظ أن دور يهود غرب أوروبا يختلف عن الدور الذي لعبه يهود وسط أوروبا وشرقها . وهذا يعود إلى معدلات النمو الرأسمالي في هذه البلاد وإلى علاقة اليهود بالمجتمع ككل . ووضعهم فيه ، فهم في فرنسا وانكلترا وهولنده لعبوا دوراً ثانوياً ، أو لنقل لعبوا دور الجزء في الكل الاقتصادي الأكبر الذي كان قد اكتسب كثيراً من ملامحه الرأسمالية الحديثة في غيبة اليهود ، وكان يتبعه مشروعه الاستعماري الضخم ، ولذا لم يلعبوا سوى دور منشط جزئياً .

أما في شرق أوروبا فإن المجتمعات الأوروبية هناك لم تكن متطورة بما فيه الكفاية ، ولم يقدر للرأسمالية (التي نشأت في مرحلة متأخرة) أن تتطور ، ولم يكن لها مشروع استعماري مهم ، وانتهى الأمر بأن حل النمط الاشتراكي في الانتاج محل النمط الرأسمالي .

ولذا تحول اليهود هناك اما إلى طبقة عاملة أو طبقة برجوازية صغيرة لاوظيفة لها ، وكان من بينهم رأسماليون ، ولكنهم كانوا نسبة صغيرة لا تتجاوز ٢% .

أما وسط أوروبا ، وخاصة ألمانيا ، فقد ظهر فيها النظام الرأسمالي واخذ يتطور بسرعة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وتبلور لألمانيا مشروعها الاستعماري الخاص وكان اليهود يشكلون عنصراً هاماً في عملية التطور الرأسمالي هذه . ولكن تم ضرب الرأسمالية الألمانية ومشروعها الاستعماري ثم تحويل ألمانيا نفسها إلى ما يشبه المستعمرة بعد اتفاقية فرساي . وحينما عاودت محاولة التصنيع مرة اخرى لم يتم ذلك حسب النمط الرأسمالي الحر ، وإنما تم بتدخل الدولة . وقد راح الرأسمال اليهودي ضحية هذه العملية .

ويتضح تباين معدلات إسهام أعضاء الطائفة في نمو الرأسمالية من بلد لآخر في علاقتهم بالمدن ومدى تركيزهم فيها . وظهور المدن وازدياد أهميتها كان يعني أن الوظائف المالية والتجارية الهامشية القديمة أصبحت تحتل المركز . وقد صاحب ذلك تحول في وضع اليهود . فبدلاً من كونهم عنصراً بشرياً متحركاً يحمل رأسمال متحرك ، ويتحرك على اطراف المجتمع تحولوا إلى عنصر بشري يقطن المدينة في داخل المجتمع وليس على هامشه ، لأنهم أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الاقتصاد الوطني ، وقد اتاح ظهور الرأسمالية فرصة أمام الرأسمال اليهودي المتحرك في أن يدخل الاقتصاد الجديد بنسبة أعلى من الرأسمال المحلي

غير اليهودي الثابت (المستثمر في العقارات والمزارع) . وهو الأمر الذي تم إنجازَه في إنجلترا وفرنسا ثم ألمانيا . أما في شرق أوروبا فعلى الرغم من أن تركيز أعضاء الأقلية اليهودية في المدن قد ازداد ؛ إلا أن سياقه الطبقي كان مختلفاً ، إذ إن وجودهم في المدن هو الذي حولهم إلى بروليتاريا .

أما بخصوص علاقة الصهيونية بالرأسمالية فيمكن القول أنها ليست مباشرة ، فالصهيونية ليست جزءاً من التشكيل الحضاري الغربي وإنما هي جزء من التشكيل الإمبريالي الغربي ، يخدم مصالحه الاستراتيجية تحت ظروف خاصة ، هي ظروف الاستيطان في فلسطين . ولذا ، لم تصر الإمبريالية الغربية أو البرجوازية اليهودية الغربية أن يأخذ المشروع الصهيوني شكلاً رأسمالياً محدداً ، وإنما سمحت له أن يأخذ الشكل الاقتصادي المناسب ، الذي يضمن بقاءه حتى يستمر في خدمتها . وقد تم التوصل إلى ان الأشكال الجماعية في الإنتاج هي أنسب الطرق لتنفيذ المشروع الصهيوني الاستيطاني الاحلالي ، ولذا بينما كانت الولايات المتحدة المكارثية تحارب الشيوعية في الولايات المتحدة كان الصهاينة في الخمسينات يحتفلون بعيد العمال في مايو وينتسبون إلى الدولية الاشتراكية ويتلقون المعونات بسخاء من الحكومات الغربية ومن أعضاء الأقليات في العالم الرأسمالي ، ويقومون على خدمة الإمبريالية ! .